الفن الإسلامي ودوره في التواصل الحضاري بين الشعوب عمارة إيطاليا نموذجًا

د. أنور محمود زناتي

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية التربية – جامعة عين شمس

القاهرة – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أنور محمود زناتي، الفن الإسلامي ودوره في التواصل الحضاري بين الشعوب: عمارة إيطاليا نموذجًا- دورية كان التاريخية- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ١١٣ – ١١٧.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

إن التقاء الحضارات معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية، وهو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه. وقد تمّ دائمًا وأبدًا وفق قاعدة "التميز بين ما هو مشترك إنساني عام، وبين ما هو خصوصية حضارية"، وبقدر ما تعظم الحاجة إلى حوار جدي بين الثقافات والحضارات لإقامة جسور التفاهم بين الأمم والشعوب، تقوم الضرورة القصوى لتهيئ الأجواء الملائمة للبحث عن آليات هذا اللقاء والتواصل. ومن المؤكد أن الحضارة الإسلامية (Islamic Civilization) كان لها دورها الفعال في التواصل بين الشعوب وهذا الدور لم ينقطع على مر الزمن، ولكنه في العصر الوسيط (Medieval) كان أكثر وأعرض وأعمق، وذلك بفضل ما توصلت إليه الحضارة الإسلامية من أسباب التقدم والرقي، وحتى العصر الحديث ما زالت هناك آثار لتلك الحضارة. ولعل أجلى ما تتضح عليه صورة ذلك الأثر هو "الفن الإسلامي" (Islamic Art). والفن بصفة عامة يلعب دورًا هامًا في صياغة عقلية الفرد والمجتمع، وهو ما يمكن أن نطلق عليه مقولة: "الفن يهذب ثقافات المجتمع"، وهو الذي يصوغ عالمه وواقعه الحقيقي، والفن: "أساس تشكيل الأفكار، ودليل على النشاط الفكري للفرد والمجتمع". وفي هذه الدراسة سوف نتعرض لتأثير الفن الإسلامي العريق على الحضارات والشعوب، والتي تؤكد دور الفن الإسلامي في إيجاد تواصل وتمازج بين الحضارات، وهذا التواصل يؤدي إلى بناء علاقات حميمة وتفاعلات حضارية تقرّب بين الأطراف المختلفة.

مُقَدّمَة

إن كل متأمل في الفن الإسلامي يعرف أنه أرسى معايير ذات صبغة مميزة، كان لها آثارها الواضحة على العالم أجمع. لقد كان انتشار الفنون الإسلامية من أروع ما وقع في تاريخ البشر. والفنون الإسلامية -ولا جدال- قد عمت أجزاء كبرى من العالم"، فبدت على غاية الكمال سلسة غاية السلاسة، غنية أي غنى. وقد تمكَّن الفن الإسلامي من بلورة شخصية متميزة ومتكاملة وذلك في فترة زمنية قصيرة لا تتجاوز قرنًا من الزمن.

وما من فن إلا واقتبس من آثار الفنون السابقة، وما من فن إلا وتلقَّى مبادئ صناعته من فن سبقه. والفن الإسلامي لا يشذ عن هذه القاعدة، فقد تأثر بالفن البيزنطي (Byzantine Art) والفن الساساني، بدليل وجود بعض خصائص هذين الفنين في الآثار الإسلامية الأولى، وتأثر كذلك بالفن القبطي (Coptic Art) الذي اقتبس منه المسلمون بعض عناصره، ثم طوروها وأدخلوا عليها عناصر أخرى أصبحت فيما بعد من خصائص الفن الإسلامي. ولقد استطاع الفنان المسلم أن يصهر كل هذه العناصر والمؤثرات الفنية الخارجية، ليخلق شخصية ثرية ومتنوعة ومستقلة للفن الإسلامي، وبما يواءم متغيرات عصرهم ومتطلبات دينهم ودنياهم.

ويعتبر الفن عمومًا والمعماري منه خصوصًا، من أصدق أنباء التاريخ، وهو واحد من أهم علوم هندسة الروح والجسد وأكثرها

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

سموًا ورقيًا، ذلك لأنه قادر كموسوعة وقوة خازنة لخيال الأمم، على تحقيق التواصل والتفاعل الحضاري، والفن المعماري أقدر من غيره على التواصل مع الآخر، وقد لعب الفن المعماري الإسلامي دورًا كبيرًا في خلق حوار فني حضاري متميز، لأنه انطلق من هويته وحافظ على خصوصيته الثقافية فاستطاع من خلال جمالية إبداعه الفني تقديم الوجه الحقيقي لحضارته.

لقد وصل الإسلام إلى ثلاث مناطق تتبع إيطاليا حاليًا؛ المنطقة الأولى جزيرة صقلية وذلك في سنة (٢١٢هـ / ٨٢٧ م) عندما فتحها إبراهيم بن الأغلب، وقاد عملية الفتح أسد بن الفرات وكان للأغالبة[١] أسطول قوي في البحر المتوسط. أما المنطقة الثانية فكانت جزيرة سردينيا وفتحت سنة (١٩٤هـ / ٨٠٩ م)، وورث الفاطميون(The Fatimids)[٢] حكم سردينيا (Sardegna) عن الأغالبة في سنة (٢٩٧هـ/ ٩٠٩ م) أي بعد أن حكمها الأغالبة مدة قرن تقريبًا، وبقيت سردينيا في أيدي الفاطميين قرنًا آخر حتى استولى عليها ملوك الطوائف المسلمون بالأندلس في سنة (٤٠٦هـ / ١٠١٥م) وحاول أن يستولى عليها مجاهد العامري، ولكنه فشل في استعادة الجزيرة، وذلك بسبب قوة الحلف المسيحي الذي سيطر على سردنيا (Sardegna)[٣] في سنة (٤٠٦ هـ/ ١٠١٥م).

وهكذا؛ دام الحكم الإسلامي لجزيرة سردينيا أكثر من قرنين، وانتشر الإسلام خلالها في الجزيرة، وفي نهاية الحكم الإسلامي لسردنيا حكمها أمراء مسلمون من أبنائها، ولكن التحالف المسيحي الذي تكون من دولة بيزا (Pisa) وجنوه (Genova) سيطر في النهاية على الجزيرة وعندئذ تغير وضع المسلمين، فمنذ الاستيلاء على سردينيا ظهر التحدي للمسلمين بالجزيرة، فكثرت الهجرات الإسلامية منها وشنت حرب الإبادة على المسلمين بسردينيا، وكان السبب الرئيس في إخلاء الجزيرة من المسلمين.

أما المنطقة الثالثة، فكانت شبه جزيرة إيطاليا والتي وصلها الإسلام، فقد توجه الأغالبة إلى هذه المنطقة بعد فتحهم جزيرة صقلية، فهاجم المسلمون مدينة برنديزى سنة (٢٢١هـ / ٨٣٦م) ثم استولوا على نابولي في السنة التالية لها، واستولوا على كابوه في سنة (٢٢٧هـ /٨٤١م)، وفتح المسلمون تارانتوا، ودخلت جيوش محمد الأول الأغلبي مدينة روما سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٦ م) ووعدهم البابا يوحنا الثامن بدفع الجزية.[٤]

كنيسة القديس مرقص

لقد أخذ الغرب عن العمارة الأندلسية أشكال المآذن المربعة التي أصبحت أبراجًا للكنائس، تجسدت على سبيل المثال في **برج ساحة القديس مرقص** (سان ماركو)[٥] في البندقية[٦] (صورة رقم ١)، وقد استخدمت في تلك الكنيسة العقود المدببة التي كانت قد أصبحت أهم مميزات العمارة العربية الإسلامية،[٧] وكذلك اقتبس الغرب القوس المدبب،[٨] حيث حلوا فيه مشكلة السقوف المفصصة والمتقاطعة التي تشكل إحدى واجهات **مسجد قُرْطُبَة** (Cordoba).

صورة رقم (١)

الفسيفساء في فناء كنيسة القديس مرقس

قبة "مونت سانت انجلو"

كما يمكن مشاهدة التأثير الإسلامي في الأقواس التي تصل جوانب قبة "**مونت سانت انجلو**"، (صورة رقم ٢) وفي قصر "روفولو" في رافيللو الذي بُني في القرن الحادي عشر، ومازال يدل بتفاصيله المعمارية على أصوله الإسلامية.

صورة رقم (٢)

قبة مونت سانت أنجلو

وكانت المنارة الاسلامية (Islamic Minaret) خصوصًا في طرازها المغربي لها تأثيرها في تصميم أبراج أجراس الكنائس الإيطالية.[٩]

قبة سبوليتو

وتعزى شهرة مدينة "**بيزا**" (Pisa) بمقاطعة توسكانيا إلى وجود أكثر المتنوعات المعمارية جمالاً في العالم فيها، ومنها برج "**قبة سبوليتو**"(Duomo Spoleto)[١٠] (صورة رقم ٣) التي تشبه إلى حد كبير مئذنة سنجر الجاولي في القاهرة،[١١] وكذلك **قبة ليكي** (Duomo di Lecce)[١٢] (صورة رقم ٤). كما أن قبة وقاعدة كاتدرائية **براتو دي ميراكولي** (sul prato dei Miracoli) (صورة رقم ٥) تؤكدان تأثير الفن الإسلامي.[١٣]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

صورة رقم (٣)

قبة سبوليتو

صورة رقم (٤)

قبة ليكي Duomo di Lecce

صورة رقم (٥)

كاتدرائية براتو دي ميراكولي

قصر الدوق

وقد تأثر مهندسو **قصر الدوق** (The doge's palace) (صورة رقم ٦) بالعمارة الإسلامية، وهذا القصر بدأ تشييده في أوائل القرن التاسع وأعيد بناؤه مرات عديدة وأساليبه المعمارية تذكرنا بأساليب العمارة الاسلامية،[١٤] وخصوصًا في عمل شرافات على شكل أسنان المنشار.[١٥]

صورة رقم (٦)

قصر الدوق

كما أثرت مآذن القاهرة إبان القرن الرابع عشر والخامس عشر في تصميم أبراج النواقيس في إيطاليا في آخر عصر النهضة، وهي التي نقل عنها المهندس الكبير السير **كريستوفر رن** (Christopher Wren)[١٦] ما صممه من الأبراج في **كاتدرائية سانت بول** (St Paul's Cathedral).[١٧]

أبراج النواقيس

كما تبدو في جنوب إيطاليا التأثيرات العربية، فضلاً عن أن أبراج النواقيس في إيطاليا في **عصر النهضة** (Renaissance Archttecture)[١٨] كانت مقتبسة من أسلوب المآذن المغربية، وفي **مدينة رفيليو** (Ravello) يبدو أن الأحواض في كنيسة القديس جوفاني ذات البرج (San Giovanni del Toro) (صورة رقم ٧) تأثرت بالتصميم **الفاطمي** (Fatimmid Style) أو **الأيوبي** (Ayubbid Style).

صورة رقم (٧)

San Giovanni del Toro

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وفي كازالي مونفيراتو (Duomo di Casale Monferrato)، شمال إيطاليا نجد أن الكاتدرائية في تلك المدينة (صورة رقم ٨) مبنية بأروقة تحتوى على أقواس مقتبسة أيضًا من قواعد وأصول فن المعمار الإسلامي، ويتضح ذلك بمقارنتها بالقبة المقامة فوق الباب الرئيس لجامع قُرْطُبَة الكبير، وكان هذا الجزء من الجامع قد بني في عهد الخليفة الحكم الثاني في النصف الثاني من القرن العاشر.[١٩]

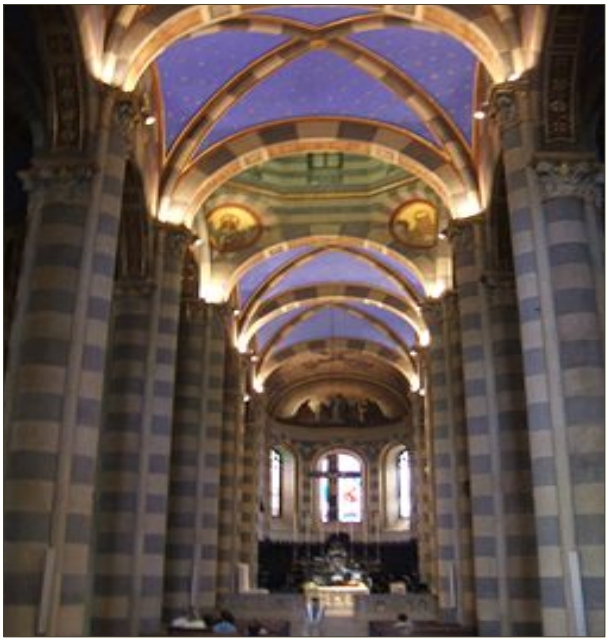

صورة رقم (٨)
كاتدرائية مونفيراتو

الزخارف العربية

وانتشرت الزخارف العربية في مدن ايطاليا مثل **كنيسة القديس ميخائيل** (Saint Michael) في بافيا (Pavia) وكنيسة **القديس فرنسيس** في أسيسي (Assisi) وكنيسة القديس دومنيكو (Domenico) في بولونيا (Bologna).[٢٠]

وهناك كنيسة **سانتا ماريا دي انجلونا** (صورة رقم ٩) شُيدت الكنيسة على معبد مؤرخ بالقرن (١٠-١١م)، ويُظهر ثلاث مراحل في البناء تؤرخ بين النصف الأول من القرن الثاني عشر و الرابع عشر الميلادي، أما اللوحات الجدارية فتؤرخ بصفة عامة بأواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلادي.

صورة رقم (٩)
كنيسة سانتا ماريا دي انجلونا

كما أعجب الإيطاليون بظاهرة معمارية جميلة شاعت في القاهرة على عهد **المماليك**، ومن الطراز المملوكي، وهي تبادل طبقات أفقية من أحجار قاتمة اللون مع أخرى زاهية استخدموها في الواجهات المخططة في المباني الرخامية التي شيدت في بيزا وفلورنسا،[٢١] وجنوه (Genova)[٢٢] ومسينا (Messina)[٢٣] وفي غيرها من البلاد الإيطالية، ومثل هذه الأبنية المتعددة الألوان موجودة في إقليم الأوفرن (Auvergne)، ومقاطعة فيليه (Velay) بحوض اللوار الأعلى في غربي فرنسا، وفي كنيسة القديس بطرس بنورثمبتن.[٢٤]

خاتِمَة

لقد أثبتت العمارة العربية والإسلامية حضورها المدهش والراقي، بين فنون العمارة للأمم الأخرى، وينبع هذا الإدهاش من خصوصية إسلامية مفعمة بالتفرد والجمال، حيث القباب والمنائر، والمقوسات والنقش على السطوح الحجرية وغيرها، بالإضافة إلى الفسيفساء (Mosaic)، وأنواع الزخرفة الجميلة (Ornament)، وغير ذلك من مؤشرات الجمال الرائعة التي غالبًا ما تكتسي بها العمارة الإسلامية عمومًا.

ويتضح مما سبق الدور الرائع للحضارة الإسلامية في إيجاد تواصل وحوار بين الثقافات والحضارات عن طريق تأثير الفنون الإسلامية في الفنون الأوربية، وأن الحضارة الأوربية الحديثة استندت إلى أسس الحضارة العربية الإسلامية، وكان هناك تلاق بين الشرق والغرب لا تنكره العين المجردة، ووثائق التاريخ والجغرافيا.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهَوامِشُ:

(١) **دولة الأغالبة (١٨٤-٢٩٦ هـ/٨٠٠-٩٠٩ م) Aghalibide epoch**: هم سلالة الأغالبة التي حكمت في أفريقية. كانت عاصمتها القيروان. أسسها إبراهيم الأول بن الأغلب عامل هارون الرشيد، راجع: زناتي، أنور محمود. "**قاموس المصطلحات التاريخية**". مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٧م، ص ٢٣.

(٢) **الفاطميون (٩٠٩-١١٧١ م) The Fatimids**: سلالة تنسب إلى علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة. أنشأوا دولة توالى عليها ١٤ خليفة. أسسها عبيد الله المهدي في تونس وبلغت أوج اتساعها في عهد المعز الذي أخضع شمال أفريقية وأرسل قائده جوهر الصقلي لاحتلال مصر ٩٦٩ م، فبنى القاهرة التي أصبحت عاصمة الدولة. راجع: زناتي، أنور محمود. "**قاموس المصطلحات التاريخية**"، مرجع سابق، ص١٥٠.

(٣) **سردنيا Sardegna**: هي ثاني أكبر جزيرة في البحر الأبيض المتوسط (بعد صقلية وقبل قبرص). راجع: **الموسوعة الثقافية**/ إشراف سعيد، حسين، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢، ص ٥٤١.

(٤) راجع: لوبون، جوستاف. "**حضارة العرب**"، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية للكتاب (مكتبة الأسرة) ٢٠٠٠م، ص٣٠٢.

(٥) شيدت فيما بين عامي (١٠٤٢ – ١٠٨٥).

(٦) وقلدها أهل شمال أوروبا تمثل ذلك على سبيل المثال في برج بلدية ستوكهولم المبني عام ١٩٢٢م، راجع: ثويني، علي، **معجم عمارة الشعوب الاسلامية**، دار حوران للطباعة والنشر، ٢٠٠٦، ص ٤٣٨.

(٧) شافعي، فريد. "**العمارة العربية في مصر الإسلامية**". الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م، ص١٣٦.

(٨) هونكة، سيجريد. "**شمس العرب تسطع على الغرب**"، بيروت، ١٩٦٩، ص٤٨١.

(٩) أحمد، عزيز، "**تاريخ صقلية الإسلامية**"، ترجمة: الطيبي، أمين توفيق. الدار العربية للكتاب، ص ١١٣.

(١٠) تم بنائها سنة ١٣٩٧.

(١١) **الأمير علم الدين سنجر الجاولي**: كان مملوكًا لأحد أمراء الظاهر بيبرس، وانتقل بعد موت صاحبه إلى خدمة بيت قلاوون إلى أن وصل إلى مرتبة الأمراء في أيام الناصر محمد بن قلاوون. يقع هذا المسجد بشارع مراسينا وهو مبنى على ربوة صخرية يرتفع مدخله عن منسوب الطريق بحوالي ثلاثة أمتار. راجع: عبد الرازق، أحمد، "**العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتي نهاية العصر المملوكي**". ترجمة: سهيلة مصطفي محمود ، دار الفكر العربي، ٢٠٠٩م.

(١٢) (١٦٦١ – ١٦٨٢).

(١٣) راجع: انعيم، غازي، "**أثر فن العمارة الإسلامية على فنون العمارة الغربية**"، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٥٣٢ لسنة ٢٠١٠ م.

(١٤) بريجز، مارتن. "**فن العمارة**" ضمن مقالات كتاب "**تراث الإسلام**"، ج٢، ترجمة: حسن، زكي محمد، لجنة الجامعيين لنشر العلم، ١٩٨٣م، ص١٤٦. (هامش رقم: [١] للمعرب).

(١٥) **عاشور**، سعيد، "**حضارة الإسلام**"، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٨٧م، ص٢٩٥.

(١٦) **كريستوفر رن Christopher Wren** (١٦٣٢ – ١٧٢٣): معماري إنجليزي ، اتسمت أعماله بالفخامة والأناقة معًا. عُرف أيضًا في وقته عالمًا في الرياضة. وضع تخطيطًا جديدًا لمدينة لندن، بعد حريق ١٦٦٦، لكنه لم ينفذ. بنى نحو ٥٠ كنيسة في لندن بين (١٦٧٠- ١٧١١)، أعظمها كاتدرائية القديس بولس. من أعماله غير المباني الدينية مستشفى شلسيا، وأجزاء من مستشفى جرينتيش، وواجهة قصر هامتون كورت، وحي التامبل، وكلها في لندن.

(١٧) **بريجز**، مارتن، "**فن العمارة**" ضمن مقالات كتاب "**تراث الإسلام**"، مرجع سابق، ص١٥٢.

(١٨) **عمارة عصر النهضة Renaissance Archttecture** : هي العمارة في الفترة ما بين أوائل القرن الخامس عشر وأوائل القرن السابع عشر في مناطق مختلفة من أوروبا. توضح تلك العمارة الانتعاش الواعي وتطوير بعض العناصر القديمة من الفكر اليوناني والروماني والثقافة المادية. أسلوبيًا، تتبع عمارة النهضة العمارة القوطية وتخلفها العمارة الباروكية. تطورت بداية في فلورنسا عبر فيليبو برونليسكي باعتبارها أحد ابتكاراته، وسرعان ما تطورت العمارة وامتدت إلى مدن إيطالية أخرى. انتقلت الأساليب المعمارية إلى فرنسا وألمانيا وانجلترا وروسيا وأجزاء أخرى من أوروبا في تواريخ مختلفة وبدرجات متفاوتة من التأثير. راجع: البصري، سعد علي، "**الفن في عصر النهضة**"، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

(١٩) انعيم، **أثر فن العمارة الإسلامية**، مرجع سابق.

(٢٠) شافعي، فريد، "**العمارة العربية في مصر الإسلامية**"، مرجع سابق، ص٢٦٥.

(٢١) **فلورنسا**: **مدينة** في الجزء الشمالي من وسط إيطاليا، عاصمة مقاطعة فلورنسا وإقليم توسكانا. راجع: **الموسوعة الثقافية**، مرجع سابق، ص ٧٢٥.

(٢٢) **جنوا Genova**: حاضرة بحرية، ومدينة ذات تاريخ مجيد، وتقاليد عريقة وقوية متعلقة بالثقافة البحرية ليس بمنطقة البحر المتوسط، تُعد إحدى الأقطاب الاقتصادية الإيطالية الرئيسية، وميناءها في الفرع التجاري، هو الأكبر بالبلاد، ومن بين **أكبرها** بالبحر الأبيض المتوسط. راجع: **الموسوعة الثقافية**، مرجع سابق، ص٣٦٢.

(٢٣) **مسينا Messina**: مدينة إيطالية في جزيرة صقلية، على شاطئ المضيق المعروف باسمها مضيق مسينة، وهي ثالث أكبرها مدن صقلية، وعاصمة مقاطعة مسينة، وهي ثالث أكبرها مدنها، **تعرف** بـ باب صقلية، وقد ضربها زلزالين مدمرين الأول سنة ١٧٨٣م، والثاني سنة ١٩٠٨م، فضلاً عن تعرضها لقصف الحلفاء سنة ١٩٤٣م، وفي كل مرة يعاد بناءها. ميناءها أحد أكبر الموانئ في البحر المتوسط. راجع: **الموسوعة الثقافية**، مرجع سابق، ص ٩١٩.

(٢٤) **راجع**: انعيم، "**أثر فن العمارة الإسلامية**"، مرجع سابق.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449